النموذج اللساني، والحقل السميولوجي
- العلامة اللسانية أنموذجا

محمد خريصي
جامعة محمد الخامس
الرباط (المغرب)

Résume :

On Peut considérer Ferdinand de Saussure le premier qui a prêcher la sémiologie dans son œuvre intitulée; "cours de linguistique générale". Ce qui remarquable; cependant; que Saussure n'a jamais aborder la sémiologie proprement dite si ce n'est que de manière occidentale lors de ses recherches de la position de langage au sein d'autres réalités humaines. Il parvient à imaginer une "science qui prend comme champ d'étude la vie des signes à l'intérieure de la vie sociale; science qui constitue une partie intégrante dans la psychosociologie faisant en conséquence partie de la psychologie générale et nous allons appeler cette science la sémiologie générale dérive du mot grec sémion; comme si ayant envie de dire que l'approche linguistique comme modèle pour la sémiologie générale.

D'après la détermination de Saussure pour le signe linguistique; sa nature; la liaison de ses parties qui la constituent ; on peut mentionner que la théorie linguistique propre à Saussure; contient des contributions d'ordre psychologique quoiqu'elle ne soit pas purement psychologique même si la détermination est restreinte en particulier en domaine linguistique; mais en lisant celui qui n'est investi aux idées de Saussure; se révèle la nature et une forte présence de la dimension humaine en tant psychologique que sociale.

الكلمات المفتاحية: لغة، دال، مدلول، لسان، كلام، لسانيات، سميولوجيا، اعتباطية، سنن، نسق، إجراء، تمثل، مفهوم، علامة، نموذج.

المقال:

"إن الأنساق الدالة غير اللفظية يتوقف بيانها على البيان اللساني، فما لم يوجد التقطيع اللساني للعالم يكون من طبيعة هذه الأنساق ألا تدل دلالة بينة ودقيقة على المراد. وإذن، فهي من حيث الدلالة ثانوية. فالنسق الأولي هو اللسان وما عداه أنساق ثانوية. ولهذا السبب يقدم اللسان على باقي الأنساق الأخرى"[1]

مبارك حنون

لقد قاد البحث اللساني، إمام ألسني القرن العشرين "فيردناند دو سوسير"، إلى التأكيد على أهمية النسق اللفظي، ولإبراز ما لمكانته البنيوية من أهمية في بلورة باقي الأنساق غير اللغوية وتشكيلها. وعلى الرغم من التشابه القائم بين وسائل التواصل والتعبير عن الأفكار والمكنونات من لسان وكتابة الصم والبكم والإشارات العسكرية ، فإنها تتباين من حيث الطبيعة والشكل الوجودي، "إنها موضوعة بالاتفاق والتواضع La convention داخل الكيان الاجتماعي. وبما أنها أنساق علامات متباينة، فإن "سوسير" عَد النسق اللساني أهمها"[2] وأرقاها.، لما له من سلطة تأويلية على باقي الأنساق، إلى الحد الذي جعل سوسير يخص "اللسان" بموضوع اللسانيات، هذه الأخيرة التي

كانت أرضا مشاعا قبل صدور كتابه الذائع الصيت سنة 1916، أو إنجيل علم اللسانيات، والموسوم ب: "دروس في اللسانيات العامة".

فبعد مرور ثلاث سنوات على رحيل فيردناند دو سوسير (1913-1857)، سيرى النور هذا الكتاب، على يد "تلامذته وطالبيه، شارل بالي Charles Bally، وألبرت سشهاي Albert sechehay"[3] ، وسيترك الأثر البالغ في ظهور العديد من النظريات والأسماء، من هؤلاء بول باسي Paul Passy الذي أضحى من قيدومي الدراسات اللسانية من خلال وضعه لرؤية ومشروع في وظيفة الظواهر الصوتية، أضف إلى ذلك موريس كرامون Maurice Grammont، الذي يعتبر من أعلام الأصوات في القرن العشرين باقتراحه تفسيرا نسقيا للتغييرات الديانكرونية، لذلك سيكون من الخطأ إذا رجعنا إلى سيرة سوسير، التركيز على ميوله الانعزالي، فهو في الواقع رغم قلة أصدقائه إلا أن تأثيره امتد إلى عدد من رجالات الفكر والمعرفة البارزين من قبيل ميشيل بغيل Michel Breal، وغاستون باريس Gaston Paris ووليام سترتبرغ Willem Streitberg، الذين يعتبرون من أكثر الأسماء في الدراسات اللسانية والفيلولوجية في بلدين طلائعيين في هذا المجال مثل فرنسا وألمانيا"[4]. لقد وصفت دروس سوسير، بثمرة جهد حقيقي، سعدت بميلاده مجموعة من العلوم الإنسانية بدءا باللسانيات ذاتها مرورا بالأنتروبولوجيا والسوسيولوجيا وعلم النفس بفروعه والسميائيات بمدارسها وآلياتها التحليلية، وعلوم أخرى. بل الأكثر من ذلك إن هذه العلوم والأعلام التي ورد ذكرها والتي لم يرد ذكرها أيضا، جميعهم مدينون لعلامته اللسانية التي امتد صداها لمجموعة من العلوم كالسميائيات والتحليل النفسي والدلائلي، فحتى وإن لم تحافظ على الأسماء التي سكها سوسير، إلا أنها تزيت بتوصيفات أخرى في الحقول المستعيرة، حيث بقي الشكل نفسه، كما هول الحال مع مستوى التعبير ومستوى المضمون في لسانيات "يالمسليف" السميائية، أو في ثنائية التقرير والإيحاء البارثية، أو مع آليات التحليل النفسي لدى سيجموند فرويد، يتعلق الأمر بقضية المعنى الظاهر والمعنى الباطن ومدى استعمالاتها في شرح وتحليل السلوك الإنساني.

لقد رحل سوسير وشغل الناس حيا وميتا، فوصلنا الكتاب، بناء على ما دونه الطلبة بهمة أقلامهم من خلال ثلاثة من دروس في اللسانيات، التي ألقاها في الجامعات الأوروبية، بالإضافة إلى ما وجد من أرشيفاته المحتفظ بها من طرف المقربين منه. مات سوسير إذن، وفي طموحه الكثير من التغيير والاستشراف نحو المستقبل في العلوم الانسانية والاجتماعية، والأهم في ذلك أنه يعد حلقة ثانية وهامة في تاريخ السميولوجيا بعد بورس. كما أقر بذلك جيرار دولودال، "فلم يسبق تشكيك أو جدل في سبقهما (بورس وسوسير) إلى إعلان حق النظرية العامة للعلامات في الوجود"[5]. وفي المقابل آمن مفكري ضفة البحر المتوسط، والناطقين باللسان الفرنسي، أنه يعد أول من بشر بالسميولوجيا. وهو ما أكده بنفسه في معرض حديثه عن تعريف اللسان، "إن اللسان نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، وهو بهذا شبيه بأبجدية الصم والبكم وبالطقوس الرمزية وبأشكال الآداب والإشارات العسكرية، إلا أنه يعد أرقى هذه الأنساق، من هنا يمكن البحث عن علم يقوم بدراسة هذه العلامات داخل الحياة الاجتماعية، وسيؤلف قسما من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام. وسيطلق على هذا العلم السميولوجيا (من اليونانية Sémion)، وستكون مهمته هي التعرف على كنه العلامات وعلى القوانين التي تحكمها. وبما أن هذا العلم لم يوجد بعد، فإننا لا نستطيع التكهن بجوهره ولا بالشكل الذي سيتخذه. إننا سنسجل فقط حقه في الوجود، ولن تكون اللسانيات سوى جزء من هذا العلم العام، وستطبق قوانينه التي سيتم الكشف عنها على اللسانيات"[6]، يستفاد من هذا القول، أن سوسير لم يكن يهدف إلى إقامة علم السميولوجيا، وإنما كان عرضه في علم اللسانيات هو البحث عن أسس بنيوية، لكنه عندما حاول إيجاد موقع للسان بين سائر العلوم، قادته المقارنة بين اللسان كنسق من العلامات اللغوية، وبين أنساق العلامات الأخرى، مثل أبجدية الصم والبكم والإشارات والعسكرية، إلى تصور علم يبحث في حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، علم يمكن أن نطلق عليه إسم السميولوجيا، كما يقول سوسير. وعلى "عالم النفس أن يحدد الموقع الدقيق للسميولوجيا"[7]. فتصور علم جديد ستكون مهمته، "دراسة أنظمة العلامات واللغات والرموز والدلالات، هذا التعريف جعل اللسان جزءً من السميولوجيا، هذا العلم الذي أسندت إليه مهمة ما تبقى من حياة العلامات داخل كنف

حياتها الاجتماعية"[8]. وعلى هذا الأساس، يمكن أن نفهم، أن جزئية النظر السميولوجي بالنسبة للنظر السيكولوجي، تجعل عالم النفس هو من له أهلية تحديد منزلة النظرية السميولوجية، فيكون بذلك تحديد الوقائع السميولوجية عموماً، المهمة الموضوعة على كاهل النظر السيكولوجي، التي يتوفر عليها الأفراد.

إذا كان عالم السميائيات الأمريكي، شارل ساندرس بورس، قد جعل من التجربة الإنسانية موضوعا لفلسفته، بالاعتماد على المقولات الفينومينولجية وآليات المنطق وما تسمح به سيرورات التأويل، فإن عالم اللسانيات العامة، حصر موضوع علمه وتصور اهتمامه في اللسان وذلك بغاية تحديد كنهه والكشف عن قوانينه. وبما أن اللسان واقعة اجتماعية « Un Fait Social» ، وهي حسب التصور الدوركايمي "الظاهرة الاجتماعية"، التي تكون من إنتاج الجماعة بوصفها مادتها الأساس، وليس الفرد، الفرد المعزول، فهذا الأخير لا يمكن أن يشكل لغة أو أسطورة أو تاريخ أو دين، علاوة على باقي الأشكال الرمزية التي تحدث عنها **إرنست كاسيرر**.

فإذا كان اللسان بدوره "واقعة تتميز بوضع خاص، من حيث أنه أرقى هذه الأنساق وأكثرها أهمية. فإن اللسان أيضا، هو الأداة الوحيدة التي عبرها نعقل الكون ونحوله من مجرد معطيات حسية بلا نظام، إلى كون يُعقل من خلال كيانات أخرى هي المفاهيم"[9]، التي تعتبر أداتنا الوحيدة للإمساك بالواقع، والكفيلة كذلك، باستحضار العالم على شكل مضامين لسانية. هكذا شاع عند اللغويين والأصوليين وفقهاء اللغة العرب، "أن الأشياء لها وجود في العيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان"[10]. ولاستيعاب هذه المعطيات، لا بد من التذكير بالروابط الممكنة بين اللسان وباقي الأنساق، والتي يعد من داخلها، ومؤولها ووجهها اللفظي. روابطٌ نَتَبَين من خلالها موقع بعضها البعض، لكي ندرك أهمية اللسان ودوره الرئيس في التواصل وتنظيم التجربة، علاوة عن كونه، أداة للتعيين والتصنيف والتقطيع داخل المجموعة اللسانية الواحدة والمتجانسة.

إن الأنساق المكونة للغات الإنسانية تربط فيما بينها علاقات بالغة التنوع، "حدد بعضها "بنفنست" في ثلاث علاقات"[11]، هي كالأتي:

- علاقة تناظرية، قائمة على التشابه الموجود بين نسقين سميائيين من طبيعتين مختلفتين، من قبيل التشابه الموجود بين الأبجدية الصينية وطقوس المجتمع الصيني، أو من قبيل العلاقة القائمة أيضا بين نمط تفكيرنا وطريقة بنائنا المعماري وأشكال الزخرفة والعمران.
- علاقة من طبيعة توليدية، من خلالها نولد نسقا من نسق آخر، مثال على ذلك أبجدية براي الخاصة بالمكفوفين، فهذه الأبجدية مثلا مشتقة من أبجدية اللسان، واستنادا إليها تبنى قواعدها وتركيبها.
- علاقة تأويلية، تعد أهم هذه العلاقات، وتعني أن نسقا يؤول نسقا آخر، وفي هذا المجال يتأسس اللسان باعتباره النسق الوحيد الذي يمكننا من تأويل كل الأنساق الأخرى. إن اللسان أداتنا في فهم دلالات الإيماءات وشرح معاني الصورة واللوحة والرقص. وهو ما يفيد أنه ليس بوسعنا أن نشرح الموسيقى بالموسيقى، ولا اللوحة التشكيلية بمثلها، ولهذا السبب علته وما أفرزه من سجالات فكرية، لعل أبرزها ما نادى به بارث في تفضيله للسانيات وعدها أشمل من السميولوجيا، قالبا بذلك أطروحة "سوسير" الداعية إلى استشراف علم سيدرس العلامة في كنف حياتها الاجتماعية، سيسمى السميولوجيا، وبالتالي سيكون أشمل من اللسانيات. وكأنه يريد بذلك أن تكون المقاربة اللسانية نموذجا للنظرية السميولوجية العامة.

إن اختيار سوسير للسان نموذجه اللساني وموضوع اللسانيات في الوقت نفسه، نابع من قناعته العلمية، بأن تحديد عناصر التدليل وإواليات التمثيل الرمزي، تمر بالضرورة عبر ما يقدمه اللسان من أشكال للتقطيع والتصنيف والتعيين والتركيب والإبدال والتنسيق والتداول. وبما أن اللسان بهذا المعنى "يتعارض مع اللغة Langage، فهو لا يلتبس بها وإن كان جزءً أساسيا منها. إنه في آن واحد نتاج اجتماعي لملكة اللغة. ومجموع التعاقدات الضرورية التي يتبناها المجتمع لكي يتمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة، أما اللغة في كليتها، فهي متعددة الأشكال ومتنافرة المعطيات وتتقاسمها مجالات معرفية متعددة، وأكثر من ذلك فهي تنتسب إلى المجال الفردي والمجال الاجتماعي، ولا تقبل التصنيف في أية

مرتبة من مراتب الوقائع الإنسانية، ويعود ذلك إلى أننا نجهل كيف نكتشف وحدتها. في حين يعتبر اللسان كلا في ذاته ومبدأ مصنفاً. وحينما يُستند إليه الموقع الأول ضمن وقائع اللغة، فإن الأمر يتعلق بإدخال نظام طبيعي في مجموعة، لا تنقاد لأي تصنيف آخر"[12]. ولهذا السبب اعتبر "سوسير" اللسان المنفذ الأول للولوج إلى باقي الأنساق وجعله مصفاة لها، والحال "أن اللسان عنصرا وسيطا بين الفكر والصوت، وهو ما يجعله الملاذ المسترفد عونه لإدراك الفكر، إذ لا شيء واضح قبل ظهور اللسان"[13]. أما حسب سابير وورف فإننا نجد، "إن العالم مبني وفق أنموذج اللسان". إنه القالب الذي تعبره كل الأنساق الأخرى للرس في إحدى خانا الذهن المفهومية، ومن خلاله تتم عمليات التمثل والإدراك.

لقد رأى سوسير في اللسان "مبدأً للتصنيف، ورأى فيه "دو مورو" De Mauro، مبدأً منظماً وموحِّدا للكتلة المتنافرة من المعطيات التي تشكل مادة اللسانيات"[14]. من هنا كانت انطلاقة سوسير التأسيسية لموقع اللسان في النظرية، فوجد في "الطبيعة المتعددة والأشكال المتنافرة للغة التي تبدو لأول وهلة واقعا غير قابل للتصنيف، يستحيل استنباط وحدته لأنه ينتمي في الوقت ذاته للفيزيائي والعضوي الوظيفي "الفيزيولوجي"، والنفسي والفردي والمجتمعي"[15]. خلافا لنظرته حول اللسان الذي يعده ضربا من الوحدة والاتساق والانسجام. فاللسان إذن، مؤسسة اجتماعية ونظام من القيم، ولا يخضع لأية نية مسبقة، إنه القسم الاجتماعي من اللغة، وليس بمقدور الفرد وحده أن يخلقه أو تعود له صلاحيات تغييره، إنه مفروض وعام وعلى كل من يريد التواصل أن يخضع له كلية، وبدون أدنى حالات التحفظ. وبما أنه "حصيلة جماعية من البصمات الفردية، فلا يمكن أن يكون إلا ناقصاً على مستوى كل فرد على حدة، ولا يوجد كاملا بالفعل، إلا في الجمهور المتكلم"[16]، باعتباره نتيجة لكل تواضع وتعاقد قد ينبثق عن سيرورات الفعل الاجتماعي الذي يكون بدوره حصيلة تفاعل الذوات، إنها سيرورة يصعب التكهن ببدايتها ولا بتصور نهايتها. فاللسان يوجد خارج الذات المتكلمة وخارج إرادتها وخارج قدرتها على تغييره أو تبديله، وكل ما يرتبط بالتعاقد والعرف والتواضع لا يمكن مناقشته عقليا. واللسان أحد هذه المواضعات والاتفاقات التي تتم بشكل قسري بين الفرد والجماعة.

على هذا الأساس، إذا كان اللسان اختزال للغة، وعُد العنصر المجرد فيها، إضافة إلى كونه كيان مستقل، وبما أن البنيات اللسانية لا تخضع للبنيات غير اللسانية، فإنه على الرغم من التشابه القائم بين وسائل التواصل في تأدية وظيفة التعبير عن الأفكار، فإننا نجد أن "اللسان بمثابة البوابة الرئيسية نحو فهم مناطق جديدة من الإنساني والاجتماعي، وهو ما تم التأكيد عليه في محاضرات "سوسير"، من خلال التنبؤ بميلاد علم جديد سيشتغل كنظرية عامة لحياة العلامات داخل الكيان الاجتماعي، سيسمى السميولوجيا، هذه النبوءة التي لم تأتي في محاضرات سوسير، ودروسه في اللسانيات العامة إلا بشكل عرضي في صيغة استقبالية، غير محددة الملامح والمضمون، كما تخبر بذلك كل الدراسات المهتم بالشأنين اللساني والسميائي.

ينطلق مشروع سوسير اللساني من نقد الفكرة البسيطة والذاجة القائلة بأن "اللسان مدونة، أي أنه يتكون من مجموعة من الكلمات التي تتناسب وواقع الأشياء في العالم الخارجي. وكان من الطبيعي إذن، أن يرفض أن تكون هذه الكلمات مجرد ظل للأشياء. إن اللسان لا يعكس الواقع ولا ينسخه. إنه يقدم مفصلة مزدوجة له: إن التقطيع الصوتي، بالإضافة إلى طبيعته الفزيولوجية المادية، يشكل تمثيلا رمزيا تحضر الأشياء داخله على شكل رموز صوتية محددة لتواضع تمثيلي جماعي للكون"[17]. ولم يكن سوسير وحده السباق إلى هذه الفكرة، لقد كان **"هامبولت"** أيضا يؤكد أننا "لا يمكن أن نقبل بالتصور الذي يرى أن أصل اللسان مرتبط بتعيين الأشياء من خلال الكلمات، باعتباره أيضا سلسلة من الكلمات"[18]. بمعنى آخر، إن المفهوم الذي تحضر عبره الأشياء إلى اللغة ليس مادة بل تصوراً نفسيا، يتم الحصول عليه عبر سيرورة ترميزية، وهو ما يفيد، أن العلامة اللسانية ليست تجميعا لاسم وشيء معطى في العالم الخارجي، إنها وحدة نفسية تؤلف بين عنصرين متباينين متلازمين، بحيث تتكون من المتوالية الصوتية أو الطباعية (في حال وجود المكتوب). والثاني، صورة البصمة النفسية التي تخلقها هذه الأصوات على مستوى التمثل الذهني، والحديث عن العلامة اللسانية باعتبارها دال يحيل على مدلول، يعني القذف بالذات في الطرف الثاني من ثنائية "سوسير"، يتعلق الأمر بالكلام.

يعتبر الكلام الشق الثاني من ثنائية سوسير الشهيرة على كل لسان، (لسان/كلام)، فإذا كان اللسان واجهة القسم الاجتماعي من اللغة، فإن الكلام يعتبر قسمها الفردي. إنه "مقابل اللسان، المؤسسة والنظام، لذلك فالكلام هو أساساً فعل فردي للاختيار والتحقق، وهو مكون أولا من التركيبات التي تستطيع الذات المتكلمة بفضلها استعمال شفرة اللسان قصد التعبير عن فكرها الخاص"[19]. إلى الحد الذي يجعل من استحالة الحديث عن "لسان بدون كلام، ولا كلام خارج اللسان" بتعبير (موريس ميرلوبونتي). وفي نفس السياق يقول بروندال: "اللسان كيان تجريدي محض ومعيار أعلى من الأفراد، ومجموعة من النماذج الأساسية التي يُحققها الكلام بصفة تتنوع بشكل لا نهائي"[20]. وبما أن الكلام يعود إلى التصرف الفردي للفرد، وإلى قدرته على تحويل النسق إلى إجراء وتحويل الثابت إلى متغير، والعلامة المفردة إلى خطاب ومن خلاله خلق السياقات والمقامات، فإن الكلام إذن، يعتبر تحولا من الجماعي والعام والمجرد والخضوع إلى الفردي والخاص والحر، وببساطة شديدة إن الكلام نقيض للسان.

لقد ميز سوسير بين مجالين متباينين، "أحدهما طبيعي في الذات الإنسانية، وهو تلك الأهلية السيكولوجية لدى الأفراد (الكلام)، وثانيهما الشيء المكتسب بفعل احتكاك الأفراد وتفاعلهم داخل الجسم الاجتماعي، وهو الناجم عن مجموع الاتفاقات التي يتبناها الكيان الاجتماعي (اللسان)، حتى يُتاح تشغيل الأهلية الموجودة بالطبع لا بالتطبع في الإنسان. فإذا كان الكلام يدخل في مقولة الفردي، الذي يشير إلى قدرة المتكلم على تحويل اللسان من نسق مجرد إلى كيان مرئي، وذلك بتحيينه في أفعال محققة، فإن هذا لا يعني أن الذات حرة في استعمالاتها وتأليفاتها. وإنما هي محاصرة بقوة ما يقدمه اللسان من قواعد، وإكراهات ذات الطابع الاجتماعي والديني والأخلاقي واللساني والأيديولوجي والرمزي، التي رغم وجودها خارج اللسان، فإنها تمارس على الذات ضغوطات وتفرض عليها انتقاءً وتركيباً للوحدات وفق مقتضيات المقامات والسياقات بلغة سعيد بنكَراد. وكل مأتي إلى الفرد جراء التفاعل والتعاقد الاجتماعي غير المعلن، بنتيجة الفرض على الذات، ضغوطات الخضوع الكلي. "ففي الوقت الذي حدد فيه سوسير اللسان باعتباره نسق دلائل مَوْقَعَ نفسه داخل حقل السميولوجيا العامة. ففرض على نفسه وحكم عليها بأن يفكر في العنصر اللساني كدليل، ويشكل مفهوم الدليل بالنسبة لسوسير مفهوما مركزيا، ففيه يمكن بناء العلم اللساني، خاصة وألا وجود – في نظر البعض- للسانيات بدون نظرية للدليل"[21]. والدليل عند سوسير - بعد مفهوم اللسان- سيؤدي دوراً كبيرا في توضيح "مفهوم اللسان وطبيعته توضيحا نهائياً"[22]. فماذا عن تحديد العلامة اللسانية وطبيعتها ونمط تعالق مكوناتها.

يعتبر كيان الدليل أو العلامة اللسانية الثنائية المبنى بوصفها (دال يحيل على مدلول)، من بين أبرز الدلائل الأكثر إثارة للنقاش بسبب اختراقها لحقول معرفية ومعاجم فلسفية بالغة التنوع. "فالدال والمدلول يصنفان على أنهما مفهومان مجردان، وحين نحقق الربط بين الصوت والمعنى فإننا نتكلم عن اتحاد بين الدال والمدلول اللذين يحيلان في الأدبيات الفقهية على مفهومي القوة والفعل، ونلاحظ أن دو سوسير ينفر من استعمال كلمة المجرد لما فيها من التباس، ويعبر عنها بالنفس، أو ينتهج اختيارا آخر غير استعمال ثنائية الماهية والشكل من القاموس الفلسفي. فالدال والمدلول وجود حقيقي (ماهية-جوهر)، بينما اللغة مكون شكلي"[23]. فخلافا لما كان عليه الأمر في التصور القديم، لم يعد اللسان قائمة ألفاظ تقابل أشياء، ولم تعد العلامة اللسانية ذلك الاسم الموضوع إزاء شيء معطى في العالم الخارجي، بل أصبحت في نظره شيئا آخر مخالفا، إنها وحدة نفسية تؤلف بين عنصرين متباينين متلازمين أحدهما المتوالية الصوتية، والثاني ما تحدثه هذه المتوالية الصوتية من صور سمعية، المتمثلة في الوقع والأثر أو البصمة النفسية التي تخلقها الأصوات. "فالعلامة اللسانية لا تربط بين الشيء والاسم بل بين المفهوم والصورة السمعية. وهذه الصورة ليست صوتاً ماديا، أي فيزيقيا محضاً، بل هي الأثر النفسي لهذا الصوت، أي التمثيل الذي تمنحنا إياه شهادة حواسنا لهذا الصوت"[24]، وهذا هو جوهر اللسان الذي يوجد خارج طابعه الصوتي. لذلك فهو شكل وليس مادة.

يشبه سوسير "العلامة اللسانية"[25]، بالقطعة النقدية التي تسمح لنا، باقتناء بضاعة ما، من جهة أولى، وما يسمح بتحديد قيمتها داخل النظام النقدي في سوق التداول المالي لمجتمع ما، وهو ثانيا. إن هذا التشبيه هو "ما يميز طابعها المزدوج. فهي صوت ومعنى حامل ومحمول، قيمة في ذاتها وقيمة في علاقتها بما تحل محله"[26]. إنها مجردة

ومفصولة عن واقع تحيل عليه مباشرة، بدليل إن اللسان ليس بمدونة وليس ركاماً من الكلمات التي تقابلها أشياء موجودة مسبقاً بشكل ثابت وستاتيكي في العالم الخارجي.

إجمالا، إن الدال السوسيري صورة سمعية أو تمثيل طباعي لكيان صوتي في جوهره، إنه متوالية صوتية أراد لها الاستعمال الجماعي الناتج عن تعاقد، أن تحل محل شيء آخر، إنه البصمة النفسية التي تلتقطها أذن المتلقي أو يقوم بتشكيلها فم الباث، دون تحريك الشفاه، والذات في سياق الدال غير حرة في استعماله، ولا تستطيع تبديله أو تغييره. إنه مفروض، شأنه في ذلك شأن اللسان. وبما أن وجود هذا الأخير جاء نتيجة عرف، فإن سلطة العرف أقوى من سلطة القانون كما يقال. واستناداً إلى التشبيه السوسيري للعلامة اللسانية، بوصفها مثل العملة النقدية التي يستحيل فصل ظهرها عن وجهها، فإن منطق التسلسل يقتضي آنيا الحديث عن الشق الثاني من ثنائية الدال والمدلول.

بناء عليه، إذا كانت العلامة اللسانية هي كيان نفسي ثنائي المبنى كما يتبين من خلال الترسيمة الآتية:

27

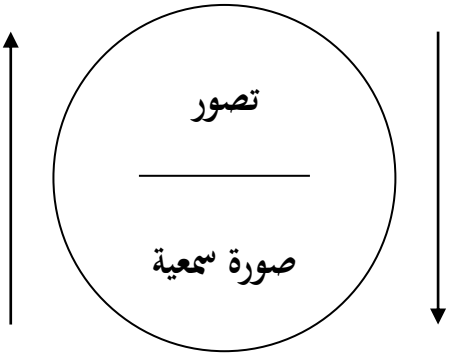

فإن المدلول يشكل في تأليف هذا الدليل/العلامة، تصورا ذهنيا نمتلكه عن شيء ما في العالم الخارجي. بمعنى آخر، إن المدلول ليس شيئا ولا يعين مرجعا، ويشترك مع نصفه الأول (الدال) في الكينونة النفسية. إن دور المدلول ينحصر في تقليص الملموس إلى مجرد، بحيث إن الشيء لا يحضر في الذهن من خلال ماديته، إنه يأتي إليه من خلال بنية شكلية تعد تكثيفا لمجموعة من الخصائص التي تسمح لنا باستحضار هذا الشيء، وفق سياقات متعددة. فليس مدلول كلمة ثور هو الحيوان، وإنما صورته النفسية (طبيعة الدليل)، لكن هذه النقاشات تبقى مطبوعة بنزعة نفسية. "إن الدليل اللساني، إذن، يوضح أن العلاقة بين الاسم والشيء علاقة مركبة ومعقدة، إذ إنهما نفسيان. والأصوات والأفكار لا تتخذ شكلها المحدد إلا حينما تصاغ في لسان محدد. وبهذا تنتفي علاقة الدليل اللساني بالمرجع والواقع الخارجي المادي"[28]، وأن التأمل في شأن هذه الطبيعة النفسية يجعل نظرية سوسير اللسانية، حتى وإن لم تكن نظرية سيكولوجية محضة، إلا أنها تضم إسهامات في النظر السيكولوجي. لعدة أسباب من أبرزها، أن الأنسان مركب سيكولوجي ذو قدرات ونوازع ورغبات وردود أفعال، على هذا الأساس استند سوسير "إلى الأهلية السيكولوجية لدى الفرد، ثم إلى العادة الجماعية أو ما كان من باب التعاقد والاتفاق"[29]. من هذا إذن، نفهم أن العلامة اللسانية "أو الوحدة اللغوية هي عبارة عن قسمة ثنائية القطبين، أحدهما محسوس، والآخر معقول. وبالنسبة لغيرو (P.Guiraud)، فإن هذا الفهم للدليل يحيل على الدراسة النفسانية التي يكون فيها الدال والمدلول صورتين ذهنيتين مترابطتين. ذلك أن "العلامة اللسانية تجمع بين مفهوم وصورة سمعية لا بين شيء واسمه"[30].إنهما (الدال/المدلول)، في الاصطلاح السوسيري، هما مكونا العلامة كما يقول رولان بارث.

يحدد عالم اللسانيات الحديثة، فيردناند دو سوسير، طبيعة العلاقة بين طرفي العلامة اللسانية (دال/مدلول)، من خلال خاصيتين اثنتين: الأولى وتتعلق باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، إذ لا صلة بين الفكرة ومتوالية الأصوات في السلسلة الكلامية. بمعنى آخر، إن الرابط بينهما لا يتأسس بناء على قاعدة طبيعية، وهو الأمر الذي يفسر اختلاف الألسن من جماعة لسانية إلى أخرى، لا الأشياء موضوعات العالم الخارجي، تكون مؤشرا مباشرا على تسميتها، فالحاصل هو أن الأشياء سميت تحت مظلة الاتفاق والتعاقد بين أفراد المجموعة اللغوية الواحدة، على أن يسموا هذا

الشيء، وهذا الإحساس، وهذه الفكرة، وهذا العمل بهذا الاسم أو ذاك. إن خاصية اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول في النسق اللساني، هي ما يجعله أكثر الأنساق التعبيرية تعقيدا وشيوعا ومقاومة للتلاشي.

إن الإعتباطية ، "لا تعني أن الدال خاضع للاختيار الحر للذات المتكلمة، وإنما تعني أنه غير معلل، أي أنه اعتباطي بالنظر إلى المدلول الذي لا يربطه به، أي رابط طبيعي في الواقع"[31]. وهو ما يفيد أيضاً، غياب أي سند عقلي أو منطقي يتم الاحتكام إليه آليا أثناء الانتقال بين الكيانين "دال مدلول". وهذا الأمر، لا يعني بتاتا التسيب والفوضى. "ولهذا السبب رأت كلودين نورمان C. Normand، أن الاعتباطية تشكل المرتكز النظري لسوسير، والضمانة الفلسفية لنظرية اللسان، ولهذا السبب أيضا، اعتبر "دو مورو" أن لاعتباطية الدليل الأسبقية في نظام الأشياء: إنها العماد الذي يرتكز عليه بناء اللسان كشكل، والقاعدة الأساسية لكل ممارسة لسانية ممكنة"[32].إن الاعتباطية باعتبارها مبدأ عاما لا يصدق على اللسان فحسب، وإنما يصدق أيضا على باقي المؤسسات الاجتماعية والظواهر غير اللسانية، بحيث يبقى مضمونها واحد، الأسماء فقط هي التي تتغير بين العرف والمتخيل الجمعي وغيره.

أما الخاصية الثانية، والمتعلقة "بالطبيعة الخطية للدال، فدوال النسق اللساني لا تقبل القياس إلا في بعد واحد هو البعد الزمني، الذي تمتد فيه وتتلقى منه خصائصها"[33]. فالزمان يؤثر في كل شيء، واللسان بدوره لا يمكنه أن يُفلت من هذا القانون الكلي والشامل، لذلك تتمثل الدوال السمعية تلو الأخرى، فتشكل سلسلة متتالية العناصر، "خلافا للدوال البصرية غير اللسانية والتي تشكل تمثيلات، حيث يرى سوسير أنها تدرك بشكل كلي"[34]، كما هو الحال مع باقي الأنساق غير اللسانية والمتجسدة في الصورة ولغة الإيماءات الجسدية، التي تعتبر من موضوعات السميولوجيا، هذه الأخيرة التي استعارت مجموعة من المفاهيم اللسانية التي لعبت دورا رئيسا في وصف الوقائع الإبلاغية غير اللسانية، نذكر منها اللسان والكلام في النظام الدلائلي لكل من اللباس والطعام (بارث)، على سبيل المثال، والدال وتمظهراته من لفظي أو لساني إلى دال أيقوني أو بصري، كما هو مثبت في نموذج بنية العلامة الأيقونية عند جماعة مو البلجيكية. Groupe Mu

هكذا ارتبطت السميائيات "بنماذج عدة: اللسانيات والفلسفة والمنطق والأنتروبولوجيا والفينومينولوجيا. ومع ذلك فإنها حافظت على كيان مستقل يتمتع بخصائص تمُيز السميائيات عن هذه النماذج وتفصلها عنها. فاستطاع هذا النشاط المعرفي أن يخلق لنفسه موضوعا للدرس وأن يحدد أساليبه في التصور والتحليل (...)، وبما أن السميائيات ليست تيارا واحدا منسجما"[35]، حيث عرفت اتساعا كبيرا وشملت سلط السميائيات مجموعة من الأنساق اللفظية وغير اللفظية وكل الثغور التي تتضمن وقائع دالة، مألوف أو بدهية، إلا "أن المعرفة اللسانية مازالت تلعب دورا رئيسا في وصف الوقائع غير اللسانية وتصنيفها. وهذا لا يحد من دائرة النموذج السميولوجي ولا يقلل من قيمته، فاستعارة الأنتروبولوجيا للنموذج اللساني مثلا لم يفقدها هويتها الخاصة ولم يسلبها موضوعها الخاص"[36]. وعلى نفس المنوال يمكن فهم العلاقة الابستمولوجية بين النموذج اللساني والحقل السميولوجي.

الإحالات:

[1] - مبارك حنون، في السميائيات العربية، قراءة في نصوص قديمة، منشورات سليكي إخوان، الطبعة الأولى 2001، ص: 47.

[2] - Ferdinande de Saussure ; Cours de Linguistique Générale; P: 33.

[3] -Ferdinande de Saussure ; Cours de Linguistique Générale; éd Payot Paris; 1983; P : 2-

[4] - Ibid. ; P : 2.

[5] - G Delledale ; Ecrits sur Le Signe ; la sémiotique de ch s peirce; éd seuil; paris 1987; PP : 29-30

[6] - Ferdinande de Saussure; Op cite ; P : 33.

[7] - Ibid. ; P : 33.

[8] - Pierre Guiraud ; La Sémiologie « que sais-je » Presses Universitaires de France ; Edition 1977 ; P : 5.

[9] - سعيد بنكَراد، السميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، سلسلة شرافات 11، المغرب، الطبعة الأولى 2003، ص: 40.

[10] - أبو حامد الغزالي، معيار العلم في المنطق، شرحه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت 1990، ص: 48.

[11] - سعيد بنكَراد، السميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص: 40.

[12] - مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 1987، ص: 23

[13] - F de Saussure ; C.L.G; op cit ; P : 115.

[14] - مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص: 23.

[15] - رولان بارث، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار قرطبة للطباعة والنشر، البيضاء، الطبعة الأولى 1987، ص: 35.

[16] - نفسه، ص: 36.

[17] - سعيد بنكَراد، السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص: 45.

[18]- Umberto Eco Le Signe ; La borbruxelle éd ; 1988 ; P ; 100 :وقد قام بترجمة هذا الكتاب وتقديمه، د سعيد بنكَراد، منشورات المركز الثقافي العربي 2007

[19] - رولان بارث، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم محمد البكري، مرجع سابق، ص: 35.

[20] - نفسه، ص: 36.

[21] - مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص: 41.

[22] - نفسه، ص: 41.

[23] - F De Saussure ; C L G ; P : 8.

[24] - Ibid ; Op Cit ; P : 98

[25] - العلامة حاصل تأليف بين دال ومدلول "حنون نقلا عن سوسير"

[26] - سعيد بنكَراد، السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص: 50.

[27] - مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص: 42.

[28] - مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص ص: 42 - 41.

[29] F De Saussure ; C L G ; P : 33-

[30] - يار غيرو، علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات "س، زدني علما"، بيروت – باريس 1986، ص: 26.

[31] - مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص: 44.

[32] - نفسه، ص: 53

[33] - F De Saussure ; C L G ; Op Cité; P : 101.

[34] - Ibid. ; Op Cite ; P : 103.

[35] - سعيد بنكَراد، السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص ص: 8-7.

[36] - نفسه، ص: 55.